

## لماذا تنشأ العنصريّة في المجتمعات الإنسانيّة المختلفة؟

د. عايض بن سعد الدوسري

جاء دين الله الحق بنظرة واحدة للبشر: أصلهم ومادتهم. ففي الدين الإلهي البشر كلهم يرجعون إلى عنصر التراب، وهم كلهم ينتهون إلى أبٍ واحدٍ. وعليه، فالبشر كلهم سواء من حيث العنصر ومن حيث الأصل.

أما بالنسبة للنظريات المتجاوزة للدين، فهي وإن كانت ترى أنّ البشر ينحدرون من أحد فروع الحيوان، حسب نظرية التطور، لكنهم يتفاوتون كما تتفاوت الفروع الحيوانية الأخرى تفاوتاً عظيماً، وهذا يبرر مبدأ أن البقاء يكون للأصلح والأقوى والأكيف من العناصر والأعراق.

ومع أنّ البشر يختلفون في مرجعياتهم، ما بين الإلهي والوضعي، إلا أنّ العنصريّة موجودة ومُبرّرة عند شرائح كبيرة من الطرفين وفي المجتمعين أيضاً. فتجدها في المجتمعات اللادينية، وكذلك في المجتمعات التي يؤمن أصحابها بالدين، مع أنّ الدين في أصله حارب الانتماء الجاهلي للعنصر.

والعنصريّة من المواضيع الشائكة والمعقدة والمتداخلة، أي التي لا يُمكن النظر إليها بسذاجة السبب الواحد المجرد فقط، ولذلك هي ترجع لعدة أسباب متداخلة ومتفاوتة. والأسباب تلك كثيرة، منها: الاقتصادي، والعرقى، والسياسي، والديني، والنفسي.

عادة النظرة العنصريّة مُستمدة من العنصر، الذات، الأنا، والتي تُقيّم كينونتها من خلال أمرين لا غنى عنهما معاً: (١) إعطاء قيمة مرتفعة لذاتها [=الأنا]، (٢) إعطاء قيمة منخفضة للآخر، الغريب، العدو، الأجنبي.. إلخ.

العُنْصُرِيَّة ذات أبعادٍ معقدةٍ تُوظفُ فيها العوامل والأسباب المختلفة المتداخلة، وقد يتم إظهار وإبراز أحد الأسباب كدافعٍ للعنصرِيَّة، كالعاملِ الدينيِّ مثلاً، لكنَّ المحرِّك الحقيقيَّ هو العامل الاقتصادي أو العرقي، وهكذا بقية العوامل والأسباب بشكل تبادلي حسب طبائع المجتمع.

وقد تناول الباحثون قديماً وحديثاً أسباب وجذور العنصرية، ولماذا تنشأ وتستمر في المجتمعات الإنسانية كلها، ولا يختلف في ذلك المجتمع البدائي، المتوحش، البربري، البدوي، المختلف.. إلخ عند المجتمع المتحضر، المدني، التنويري، المتقدم، النبيل.. إلخ؟

ولدينا العديد من التفسير ومن ثم الاتجاهات التي تحاول أن تُشخص العوامل والأسباب التي بواسطتها تنشأ العُنْصُرِيَّة وتستمر في المجتمعات المختلفة. وسوف نكتفي هناك بالحديث عن ثلاثة تفسيرات – وبمشيئة الله نعود لاحقاً للحديث عن البقية – كما يلي:

**الاتجاه الأول:** التفسير الاقتصادي. يُركز التحليل الماركسي في نقد هذه الظاهرة من خلال البُعد الاقتصادي، وهكذا في أغلب التحليلية النقدية الماركسية يتم التركيز على البُعد الاقتصادي في معظم – إن لم يكن كل – الظواهر الاجتماعية، التي يُؤمن الماركسيون أنها من صناعة الإنسان، مثل: الدين، الدولة، والعنصرية.

فالعُنْصُرِيَّة – كما يراها الماركسيون – ظاهرة خُلِقَتْ في إطار البُنى والعمليات الاقتصادية، ويمكن فهم نظام الطبقيَّة الذي تولده العُنْصُرِيَّة وينشأ عنها بشكل أفضل من خلال الاتجاه الاقتصادي. فهم يرون أنَّ الرأسمالية استخدمت وسيلتها الاستعماريَّة في توسعها العالمي، وكانت العُنْصُرِيَّة هي القناة لذلك.

والرأسماليَّة بحسب الماركسيَّة مرت بمرحلتين فيما يتعلق بالعنصرِيَّة. المرحلة الكلاسيكية، حيث استخدمت الاستعمار كأداة لفرض العبوديَّة الكاملة على الشعوب المستعمرة، فأصبح المجتمع

يتكون من طبقتين: طبقة السادة النبلاء (الإقطاعيين)، وطبقة العبيد المنحطين (السكان الأصليين أو المهجرّين).

المرحلة الجديدة، وهي حينما تخلت فيها الرأسمالية عن العبودية برجماتيًا لصالح السوق الحر لتحسين كفاءة وأداء العمل الرأسمالي. فتكون المجتمع من طبقتين جديدتين في الشكل فقط، وهما: طبقة السادة والتجار البرجوازيين (The Bourgeoisie)، وطبقة العمال الكادحين البروليتاريا (The Proletariat). وبدل قوة الاستعمار لتشكيل الطبقات أصبحت القوة هي الضغط الاقتصادي.

وهنا يلتبس البُعد الاقتصادي بالبُعد العرقي لتغذية العُنْصُرِيَّة، فيظهر في الواجهة البُعد العرقي ويختفي البُعد الاقتصادي، والذي هو العامل الحقيقي الذي يستخدم التبريرات العرقية العُنْصُرِيَّة في تقسيم الناس إلى طبقات متفاوتة يستعبد بعضها بعضًا.

وسيكون لهذا القَبُول بهذه الطبقيَّة ضرورة إيمانية كضرورات التسليم للقدر لمن يؤمن بالدين، أو بحكم الطبيعة لمن لا يؤمن إلا بالطبيعة والتطور، ويكون الاعتراض على الطبقيَّة اعتراض على الحقيقة، والاعتراض على الحقائق نقصٌ في العقل وحللٌ في الإيمان!

يقول أرنست رينان: "خَلَقْتُ الطبيعة عِرْقًا من العمال، وهو العِرْق الصيني الذي لا يكاد يعرف الإحساس بالشرف، فعليك بالسيطرة عليهم، والاستفادة منهم، وسوف يكونوا راضين، وهم كالزئوج عرق الفلاحين. أما عِرْقُ الأسياد فهو عِرْقُ الأوروبيين".

ويقول أرنست رينان أيضًا: "إذا قَلَّلنا من العِرْق الأوروبي النبيل من خلال العمل مثل الزئوج والصينيين، فسوف يتمرد الأوروبيون، لكنَّ الصيني سيكون سعيدًا بهذا العمل، إذ أنهم ليسوا مخلوقات أوروبية ألبتة. فدع كل امرئ يفعل ما هو مقسومٌ له، وكل شيءٍ سيكون على ما يرام".

ويناقش أحد الاستعماريين - كما عند مايلز - مبدأ تفوق الأجناس البيضاء على غيرها من الأجناس، فيقول: "على الرجال السود أن يبقوا إلى الأبد عمالاً وعبيداً رخيصين".

وتقول آنيا لومبا، بروفيسورة بجامعة بنسلفانيا: "الرأسمالية لا تلغي التسلسلات الهرمية العنصرية وتُصفيها فحسب، ولكنها تستمر في اعتمادها على هذه التسلسلات وتكثيفها. إنَّ العُنْصُرِيَّة تساعد على بناء التوسع الرأسمالي".

أي، أننا أمام مذهب اقتصادي يعتمد في ديناميكته النموذج الهندوسي الديني الذي يرمي ويكرس الطبقات الاجتماعية المختلفة، والتي لا يُمكن له أن يعمل إلا من خلالها ومن ثم المحافظة عليها وتبنيها ودعمها وتكثيفها. وكما تصبغ الهندوسية على طبقاتها صبغة دينية مقدسة، فإنَّ الرأسمالية تصبغ طبقاتها الاقتصادية بأصباغ عدة لها من القداسة مثل ما لمصادقية طبقات الهندوسية، مستخدمة مبررات مختلفة: عرقية، دينية، علمية.. إلخ.

يقول ريكس: "كان على النظام الرأسمالي أن يعتمد على غرس الإيمان في أذهان المستغلين والمستغلين: بتفوق والمستغلين وبدونية المستغلين". وهذه النظرة الدونية التي تزرعها الرأسمالية - كما يقول والرشتاين - في الآخرين تسمح لها بدفع أجور قليلة والسماح بحريات أقل للطبقات العاملة من الأجناس غير البيضاء!

وعليه، فالرأسمالية ونظامها الاقتصادي يستند في شرعيته ونجاحه على العُنْصُرِيَّة، فالعُنْصُرِيَّة تشرح وتقرر الاختلافات الطبقيّة بين الناس بناءً على اختلاف طبيعتهم، ومن ثم تبرر مشروعية هضم حق الأجناس الدونية، وأحقية الأجناس العليا بالأرباح الكبيرة.

لتكون المعادلة كما يلي: (العُنْصُرِيَّة=اختلاف وتفاوت الناس=مشروعة الحقوق المتفاوتة تبعاً لذلك).

الاتجاه الثاني: التفسير الاجتماعي. وهو يرى أنّ البُعد الاقتصادي ليس كافياً لفهم العنصرية وملاحظتها. ويُستمد هذا الاتجاه من عمل ماكس فيبر الألماني، أحد رواد علم الاجتماع الغربي. فهذا الاتجاه يتجاهل العامل الاقتصادي ويُعطي العرق امتيازات لفهم ظواهر مثل العنصرية والاستعمار.

وقد بيّن فرنسوا شاتليه أنّ الغرب قد نظر للشعوب -التي قصد بلادها الأصلية لاستعمارها- نظرة عنصرية بوصفهم وحوش وبرايرة، فقد عرف الغرب -على حد قوله- أنواعاً من المتوحشين وخاض معهم تجربة؛ كمتوحشي أمريكا وكندا، أي السكان الأصليين الهنود.

وحيثما عرّفت الموسوعة الفرنسية (المتوحش) قالت: "إنه من الشعوب البربرية التي تعيش بلا قانون ولا شرطة ولا دين". ثم تُعطي مثلاً على ذلك بأمريكا التي ما تزال مأهولة بأمم الهنود الحمر المتوحشة بدون ملك ولا قانون ولا إيمان!

ويقول فرنسوا شاتليه: "ما نعرفه من أفريقيا، ممالك الغرب التي تنظم بنفسها توريد العبيد، لا يُسمح بتصنيف الأفارقة في عداد المتوحشين، ويُقال عن الأفريقي: إنه خُلِق ليخدم".

لقد كان هذا التصنيف الطبقي كوحشي كافياً لأن تقوم الجيوش الغربية بغزو تلك القارة الجديدة، وإبادة سكانها الأصليين إبادة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. أما القارة الأفريقية فصنّف أهلها كعبيد، ولذلك سخرُوا للخدمة. لقد كان التصنيف العرقي هو المبرر الذي جعل حياة هذا المتوحش أو العبد رخيصة وبلا قيمة.

يقول مالكم إكس مخاطباً الأمريكان السود: "من أنتم سوى عبيد سابقين، أنتم لم تأتوا على "المايفلاور"، أنتم أتي بكم على سفينة عبيد مقيدون بالسلاسل مثل الخيول والبقر".

ويقول الباحث الغربي ريزارد كابوتشينسكي: "لم يكن الإنسان الأبيض، الأوروبي، يغادر قارته إلا بهدف واحد: هو الاحتلال. كان يخرج من دياره ليصبح سيّداً على أراضٍ أخرى وللحصول على عبيد أو المتاجرة أو التبشير".

ويقول منتسكو مبيّناً حجة من يرى استعباد السود: "إذا كان عليّ أن أدافع عن حقنا في اتخاذ الزوج ذوي البشرة السوداء عبيداً، فإنني أقول: إن شعوب أوروبا وقد أفنت سكان أمريكا الأصليين [الهنود الحمر وغيرهم] لم يكن أمامها إلا أن تستعبد شعوب إفريقيا، لكي تستخدمها في استصلاح أمريكا الشاسعة".

ويواصل منتسكو حديثه فيقول: "وما شعوب إفريقيا إلا جماعات سوداء البشرة من أخص القدم إلى قمة الرأس، ذات أنوف فطساء إلى درجة يكاد من المستحيل أن ترثي لها، وحاشا لله ذي الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحاً أو على الأخص روحاً طيبة في جسد حالك السود".

ويقول فرنسوا شاتليه: "كان على النظام -أي الغربي- إنكار إنسانية العبد، إنه لا يعرف، بوصفه حيواناً أو آلة أو كافراً، كيف يشارك في دائرة السوق التي هو مع ذلك دولابها الحاسم، يفترض اقتصاد النخاسة عدم تماثل صارم: إنسان=أبيض=حر، دون الإنسان=غير أبيض=عبد".

ويؤكد بندكت أندرسون أنّ الأساس الأخلاقي الذي قدمه الليبرالي الكولومبي بيدرو فيرمين دو فارجاس في مطلع القرن التاسع عشر من أجل تبرير استبعاد وإبادة الهنود هو في قوله: "إن كسل الهنود، وغبائهم، ولا مبالاتهم تجاه الجهود الإنسانية الاعتيادية تدفع المرء إلى الاعتقاد أنّهم ينحدرون من عرق منحط".

ويقول الفرنسي **جوبينو** في رسالة له حول عدم تساوي الأجناس: "إن الآريين وحدهم هم بناء الحضارة والمحافظون عليها، وإنَّ التفاوت العنصري كاف لتفسير مصائر الشعوب". هذه العنصرية دَفَعَتْ **بلومباخ** إلى تأسيس نظريته الشهيرة التي زعم فيها أن هناك توافقًا بين العنصرية وبين طبيعة العقل الأوربي.

وهذا ما قرره **النازيون** الذين ذهبوا إلى أن العروق ليست مختلفة فقط بل متفاوتة، أفضلها وأرقاها وأنقاها العرق الآري، الفرع "النورديكي"، وأدناها وأحطها الأفارقة السود. ولذا فقد منع أدولف هتلر زواج الألمان من الأجناس الأخرى؛ حتى لا يختلط دمهم النقي بدماء غيرهم الفاسدة.

ويبيّن **كابوتشينسكي** أن العنصرية هي التي دفعت النظام الأبيض في جنوب إفريقيا إلى تأسيس علاقاته بالآخرين على مبدأ التمييز العنصري (**apartheid**)، ثم يُفسر هذا التصرف - القائم عدم قدرة على التفاهم مع الآخرين والتطبع بطباعهم، والرغبة في بناء الأسوار الضخمة وحفر الخنادق العميقة، للانعزال عن الآخرين - "بأنه فشل للكائن البشري في علاقاته".

ويذكر فرنسوا شاتليه أنّ هناك "تقسيمًا كونيًا للعمل: للأبيض النظام والحرية والمثابرة، أما الأصفر فهو جسور وضعيف ولكنه عملي، في حين يكون الزنجي شره وموسيقى وكثير النسل وغير مستقر".

**الاتجاه الثالث:** التفسير الديني. حيث نجد أنه في الأديان الوضعية مثل الهندوسية قد تم تفصيل المجتمع تفصيلاً عُصْرِيًّا وطبقيًّا إلى أربع طبقات. فكانت هذه الطبقات التي أصبغت صبغة دينية تبريرًا للعنصرية وتسلط واستعباد إحدى الطبقات للطبقات الأخرى.

واستخدم في الغرب دينيًا - كما تقول **آنيا لومبا** - "لعنة نوح على المنحدرين من ابنه حام بطريقة شعبية لشرح عبودية الفلاحين الأوروبيين، قبل بكثير من أن تُصبح تسويغًا للسواد".

وكذلك ما صنعه كُتَّاب التوراة من تحريفات وطعونات في الأنبياء عليهم السلام والأقوام الذين يكون لهم عداوات قوميَّة، كقصة لوط [عليه السلام] مع ابنتيه، للتدليلِ بشكلٍ عنصري على وضاعة نسب قبيلتي: موآب وعمون، عدوي إسرائيل واليهود ذلك الوقت الذي كُتِبَ فيه ذلك النص ووضعت فيه القصة.

وكذلك قد واجه اليهود في معظم تاريخهم كراهية شديدة وعدوانًا قاسيًا خصوصًا في العالم الغربي على امتداد ألفي سنة، حيث وُصِفَ اليهودي دائمًا بأنه "عبدٌ للعالم"، و"شرير"، و"فاسد" و"مرتشي"، و"ومراي" و"قاتل". إلخ. وزاد العنصرية ضد اليهود اتهامهم دينيًا بأنهم السبب في قتل يسوع وصلبه!

وفي المقابل، أصيب اليهود بردة فعلٍ عكسية، بسبب الاضطهاد من معظم الأمم التي سكنوا بينهم واتهموهم بالفساد—ولعل هذا يشرح ويفسر البعد النفسي للعنصرية— فأصبحوا يكيلون على أنفسهم صفات التفوق العنصري وعلى بقية الشعوب صفات الانحطاط العنصري. وألبس كل ذلك ثوبًا دينيًا مقدسًا يجب الإيمان به.

وكذلك ما حدث في المذاهب المحدثَّة كالمذاهب الباطنيَّة التي تجعل البشر طبقات، بعضها عليا مقدسة خُلِقَتْ من النور الإلهي، ولها وحدها العصمة والحق المطلق في الحكم، والبعض الآخر طبقات سُفلى خُلِقَتْ من النجاسات، ولا يُنسب لها أي فضيلة وهي أشد وضاعة من الكلاب والخنازير!

هذه العنصرية، التي يُجادل كثيرٌ من الباحثين أن أصولها فارسيَّة عنصريَّة أفرغت أحقادها ضد العرب في قوالب باطنية، هي في حقيقتها ذات دوافع قوميَّة وسياسيَّة تم إلbasها لباس الدين والإيمان، واختلقت النصوص من أجل خدمتها، ومع غياب الجيل المؤسس=المختلقين؛ اعتنقها من بعدهم من جعلها دينًا!



كذلك استخدم البُعد الديني لتكريس موقف الغرب "الأنا" من "الآخر"، فبحسب العديد من البحوث والدراسات فإنَّ الغربي الأبيض كان يرى أن الله كرمه وفضله على خلقه، وأن الله كما منح العبرانيين أرض كنعان، وطرد منها أهلها الأصليين، فقد منح للأوروبيين المهاجرين القارة الأمريكية، وطرد منها سكانها الأصليين، الهنود الحمر وغيرهم.

يقول فرنسوا شاتليه: "إن أمريكا هي في نفس الوقت كنعان الجديدة، القدس الجديدة، وفيما يخص الأمريكيين، فهم تحت الحماية الإلهية، إن شعباً مختاراً، فقط، هو الذي يستطيع الإقامة في هذا البلد الموهوب بكرم، لقد عاملهم الله مثل العبريين".

ولو لاحظنا سنجد أنَّ البُعد الديني في الغالب - كما يُستخدم العلم - ليس إلا لافتة وشعارات تخفي المحركات الحقيقية للعنصرية، وإن كانت تُكرسها وتنميها. فمحركات العنصرية الأولى إما أن تكون اقتصادية أو سياسية أو قومية، ثم يتم إلباسها اللباس الديني لتعميقها كإيمان راسخ وحقائق لا تقبل التشكيك.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ).